

العمل *

لئن كان للطبيعة حق الأولوية في أحداث الثروة سواء في أرضها الخصبة، أو في أحراشها الكثيفة، أو في مناجها الكثيرة المعادن، أو في مراعيها الغزيرة السكّاء، أو في أنهارها المتدفقة بالخيرات، فإن المدار في استثمار كل ذلك على الممّل ولو قليلا . فلا بد من فلاح الأرض وبذر الحبوب قبل أن تجود الطبيعة بنعمائها، وتبذل الأرض غلتها، ولا بد من احتقار المناجم قبل استخراج كنوزها، ولا بد من جني الثمار قبل التمتع بلذيق طعمها . فالعمل ضروري للعمران، ولازم لكل موجود، وهو المورد الطبيعية التي هي ينابيع الثروة بمثابة الدلو من البئر، إذ لولاها ما قدر أحد على الاعتراف منها .

وقد وفي الدين العمل قسطه من المدح حيث حث على التمسك به ، فقال عز وجل في سورة مريم (وهزي إليك بجدع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقر عيننا) وهو أمر به ، لانه إذا كان جل شأنه يأمر السيدة مريم وهي في وقت الحاض بهز جدع النخلة قبل أن يساقط عليها الثمر ، مع انه قادر على أن يكفيها مؤونة ذلك الثعب ، فمن البديهي انه يأمر كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية بالسعي في تحصيل رزقه ، ولا سيما إذا كان صحيح الجسم . وقال تعالى في آية أخرى (وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا) أي وقتا يلزم فيه السعي لتحصيل العيش وترقب الرزق بالعمل ، وقال (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وهو أمر بوجوب جوب البلاد والضرب في طولها وعرضها ، رغبة في العمل والاتفاح بما خلق جلت عظمته من الخيرات ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) أي

(*) وعدنا قراء المناج في الجزء الماضي بأننا نقل لهم طائفة من كتاب الاقتصاد السياسي المفيد ، وهذا ما اخترنا نشره وفاء بالوعد ، ونحريا للنفع

اعملوا حتى تحصلوا على ما يقوم بضروراتكم ، وقال (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وقال (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا ويح هذا لو كان شابهه وجلده في سبيل الله ، فقال النبي « لا تقولوا هذا فإنه ان كان يسعى على نفسه ليكفيها المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » وقال « احث لدينك كأنك تعيش أبدا » وقال « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب ، خير من أن يأتي رجلا اعطاه الله من فضله فيسأله اعطاه أو منعه » وقال « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري وهكذا فضل النبي العمل في اية حرفة على الاستئمانه الى الكسل ، وارقة ماء الوجه في الطلب . وجاء في الأنجيل ما معناه « تأكل خبزك بعرق جبينك » وهو حث على العمل طلبا للارتزاق . وروي إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام رأى رجلا فقال ما تصنع ؟ قال أتعبد ، قال ومن يعولك ؟ قال أخي ، قال : أخوك أعبد منك . وقال عمر بن الخطاب « سامن موطن يأتي الموت فيه أحب إلي من موطن اتسوق فيه لاهلي أبيع وأشتري » وقال « لا يقعد أحدكم عن طاب الرزق ويقول اللهم ارزقني » فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » وقيل للإمام أحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتي رزقي ، فقال أحمد « هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي . وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال : تفدو خماسا وتروح بطانا ، فذكر انها تفدو في طلب الرزق » هكذا يحث الدين على العمل ويرغب فيه مراعاة لتقدم العمران ، ومحافظة على النوع الانساني من الفناء ، ومن ذلك تظهر حطة أولئك الذين يرون التوسل وسيلة للارتزاق ، والتسول حرفة للتعيش ، أولئك الذين لم يعرفوا مزية العمل وعلاقته بالسعادة ، ففضوا مد أيديهم للسؤال على مدها للممل ، واستسهلوا أن يكونوا كالكلاب تأكل كل ما يلقى إليها ، أولئك هم الذين يحمل الشقاء بالبلد الذي يحلون

فيه، فهم يستنفدون ثروته، ويستنزفون خيراته، بدون أن يسعوا في إحداثها.
العمل هو أساس الثروة فكيف ينظر النجاح بدونها، وهو دعامة كل ما تراه في العالم من
التقدم في المدنية . ما رأينا بلدا تمسك أهله بأهداب العمل إلا وتحولت فيه الصحارى
القفر إلى حدائق غناء، وجادت الأرض بكنوزها، وانساب الذهب إلى جيوب
أهلها . لولاه لم يصر التراب تبرا، وتبدل المغاور بمعاهد للعلوم، ومعابد للنسك، ومعامل
للصناعة . لولاه ما ضحكت الأرض من بكاء السماء، ولا ابتست الأزهار في الأكام،
ولا حملت الأشجار لذيذ الثمار من كل زوجين اثنين، إذ أنه لا بد من غرسها
قبل أن تصير دانية ظلها، مذلة قطفها، ولا غنى عن تعهدنا قبل أن تزرع
أغصانها، وتصير دوحه تناطح السحاب . لولاه ما استنبط الإنسان الوسائل التي
يسخر بها القوى الطبيعية، ويتغلب على الصعاب، ويقرب المسافات بالبخار والكهرباء،
ويجعل كليهما رهين إشارته . لولاه ما أخذت الأرض زخرفها، وبلغت من المدنية
غايتها، وبدت آثار العمران في أنحائها، وصارت معمورة يتزايد سكانها في كل عام،
وتضاعف ثروتها آناً فآناً .

من ينكر فضل العمل في إحداث الثروة، فليرجع بيصره الكرة الى
« استراليا » في الماضي يجدها في آخر درجة من الانحطاط، لخول سكانها
الاصليين، وكثرة اتكالم على الموارد الطبيعية، ويشاهدها الآن وقد نالت
من العمران حظا وافرا، وجرت في المدنية شوطا بعيدا . ذلك لان قوما عرفوا
مزية العمل استوطنوها، فنهلوا من تلك الموارد، وعملوا في برها وبحرها، واحتفروا
المناجم واستخرجوا كنوزا دفنتها الأرض في بطنها اجيالا، وحافظت عليها لمن يقدر
العمل حق قدره . فطبيعة تلك البلاد لم تتغير وانما تغير سكانها . بل مالنا وللتشيل
باستراليا، وأمامنا شبه جزيرة العرب التي كانت محط رحال المدنية، ومهبط العلوم
والعرفان، ومصدر العمران، مالها قد عفت آثار مدينتها، ودالت دولة ملوكها،
واندرست معالم علومها، واندرت معارفها، وصار ذلك المجد القديم، والسودد الماضي،
أشبه بحلم حلم ١١١١ أليس السبب هو ان ذلك السلف الصالح خلف من بعدهم خلف

أضاعوا الجد الموروث، وأهملوا العمل، وتسلخوا باذيال الكسل، حتى صاروا قديما في عالم جديد (ونحسبهم أيقاظا وهم رقود)
 كان « كسائي » وأضرابه يعتبرون الأرض الوسيلة الوحيدة لاجداث الثروة، ويبخسون العمل حقه في الاحداث، وذلك زعم صحيح من جهة ان الأرض ينبوع المواد التي تقوم بها الصناعة، فلا يقدر الصانع على نسج ثوب بدون قطن، ويستحيل عليه صناعة آلة حديدية بدون حديد، ولكن « كسائي » بخس العامل حقه، وأنكر عليه تحويله الحديد من شكله الطبيعي حيث لا ينتفع به، الى شكل يصير بواسطته آلة تجارية يتهافت الناس على اتياعها. أنكر على العالم الكيماوي تركيه لدواء فيه شفاء للناس من مواد طبيعية لا تقيد كثيرا، وهذا مالا ترضاه العدالة، على انه بعد « كسائي » كما قدمنا أتيج للعمل ان يأخذ « آدم سميث » بناصره، ويظهر فضله، ويطلب في مدحه، ومن ثم أخذ مقامه في الصمود، ونجمه في السعود، حتى لقد قال فيه العلامة « جيد » انه هو الجدير دون غيره أن يكون الوسيلة في اجداث الثروة حقيقة، إذ الانسان هو المنتج الحقيقي لها، وما الطبيعة إلا طوع ارادته، يجر كما كيف شاءت تلك الارادة

١ - أدوار العمل

عصر الصيد

في ذلك العصر كان الانسان قليل العمل، كثير الاعتماد على الطبيعة، يعيش من صيد البر أو البحر، وكان رحالا كالا نعام الساعة، يسكن البقاع الكثيرة القنص، كما تأوي هذه الى المروج الغزيرة الكلا، ويلقي عصا الترحال اذا قتل الصيد، كما تفعل هي اذا اغيض الماء أو جفت المراعي. وقد كان في ذلك الدور مهددا بخطر ين: الوحوش الكاسرة، والمجاعات المهلكة، اقله اذ خاره، لما يقتات به في اعساره، قالويل له اذا أصابه مرض أقعده عن الصيد، أو اتابه حر أو برد منعه عن مطاردة فرسته، والويل له اذا كان ضعيف النكاية أعداءه (كذا في الاصل) الذين يداهمونه لسلب ما اقتنصه . وكان عدم ادخاره راجما الى أسباب كثيرة، منها عدم احترام الحقوق، فكان حقه برزعا لا يقدر هو على حمايته، وليس هنالك حكومة تدافع عنه، ومنها عدم وجود مسكن له او ذرية في

أغلب الأحيان، ونذا لم يوجد عنده ما يدعوه الى الاحتفاظ بالهوت تحرزا للمستقبل .

عصر الرعي

ولما رأى نفة معرضا للمجاعات القتالة التي كانت تجتاحه من وقت الى آخر ، ورأى أنه ملزم بالنفقة على زوجته وأولاده ، توجهت همة الى تدجين الحيوانات النافرة كالابل و الحيل والغنم وغيرها ، مما كان لا يتفق به كثيرا . ووجد من أهله وذويه من يساعده على رعي تلك الابل والغنم في النوديان والمروج الفسيحة التي تحيط به ، والانتقال بها من مكان الى آخر . وفي ذلك العصر ازداد عدد الناس ، ا كانوا عليه ، وتألفت منهم قبائل كثيرة كانت ثروة كل واحدة منهن تقدر بعد رؤوس الابل أو الغنم التي تملكها ، كما كانت الحال عند العرب والتركمان ، وكما هي الآن عند العرب الرحالة والزط . ويمكننا ان نعزو كثرة عدد الناس الى سببين (الاول) كثرة نتاج الحيوانات التي كانوا يربونها حتى صاروا في سعة من العيش ، فكانوا ينتفعون بألبانها وأوبارها ولحومها وجلودها حتى قلت المجاعات بينهم (الثاني) ازدياد العصبية في كل واحدة من تلك القبائل ، مما جعل حق الملكية مضمونا نوع ضمان ، ووجب الى كل فرد اقتناء الحيوانات فرادت الثروة وزاد العدد .

عصر الزراعة

وكانت النتيجة الطبيعية لزيادة عدد السكان هي الازدحام على المراعي بالحيوانات مما جعل حشائشها التي غرستها يد الطبيعة غير كافية لسد الحاجة ، فعمد الناس الى معالجة الزراعة من اثاره الارض ، وبذر الحبوب فيها وتمدها بالسقي ، حتى نبت ما يكفي لمؤوتهم ولا نعمهم . واستخدموا في الزراعة كثيرا من تلك الحيوانات ، ومن ذلك العصر ظهر العمل بمظهر أجلى ، إذ لم يعد الانسان مفوضا كل أموره للطبيعة ، فأوي حيث نبتت حشائشها ، ويرحل اذا جفت خيراتها ، بل أخذ يعول على معواه ، فيحول به الارض المجذبة الى مزارع كثيرة الخيرات ، وانبنى على رغد عيشه تقدم عظيم في أحواله الادبية ، فنظم معيشتة وظهرت الحكومات لأول مرة بالمعنى الذي نراها به الآن ، ولا حاجة بنا الى القول ان معظم الامم المتمدنية في الزمن الماضي كانت تعالج الزراعة في أول أمرها قبل ان ترسخ قدمها في المدنية . والسبب في ذلك بساطة الزراعة ، وعدم

احتياجها الى كثير تفكير أو كبير عناء ، على ان تلك الامم نفسها وجهت همتها بعد ان تم لها الامر الى استجادة الصنائع على اختلاف انواعها .

عصر الصناعة

الصناعة أثر من آثار المدنية تتوجه الهمم اليها عند بزوغ شمسها ، وتستجاد اذا زخر بحر العمران ، والسبب في ذلك راجع الى أمرين (الأول) ان الانسان لا يتوق نفسه الى الكماليات كالصناعات المختلفة الا بعد تحصيل الضروري من مأكل وملبس ، (الثاني) هو ان معظم الصناعات تحتاج الى الممارسة والتعليم ، وهما لا يوجدان في وسط الامم المتوحشة ، ومن الصنائع ما هو مقدم كصناعة النجارة والحداذة والبناء والخياطة ، لان منفعتها ظاهرة لبناء المسكن وعمل الملابس ، ولذا توجد احيانا بحالة ساذجة ، ومنها ما لا يوجد في الامة إلا اذا تهنت وتنوعت أساليب مدنيتها ، كصناعة الرسم وصناعة الطباعة وتجليد الكتب (١) وكلما علا كعب الامة في العمران ابتدعت الصنائع المختلفة ، واستنبطت الاختراعات المفيدة ، وارتقت فيها الاعمال العقلية الضرورية للصنائع كالتعليم والتأليف .

عصر استخدام البخار

على انه مهما يكن من تقدم الصناعة عند بعض الامم في الاحقاب الغابرة فان اختراع البخار في القرن الماضي جعل صناعة الزمن الحاضر متقنة ، وصار العامل بدل ان يستغرق وقتا طويلا في الصناعة ، يدير الآلة البخارية فكفيه مؤونة التعب .

﴿ ب - الاعمال العقلية ﴾

ولا مشاحة في ان عمل الانسان في الادوار التي تقدمت لم يكن يدويا محضا ، بل لا بد له من أعمال عقلية ولو قليلة ، لانه لا ينتظر أن يصنع الانسان عدة للصيد أو آلة لفلاح الارض أو يندر الحبوب إلا بعد التفكير الذي هو المميز للانسان من الحيوان ، ولا يتصور أن يستوعب الصنائع إلا بعد أن يعرف دقائقها من المعلم ، ويتعلم العلوم المرتبطة بها ، ثم هو لا يقدر على تصد الارض ما لم يوجد هناك حاكم يمنع عنه تمدي الغير ، ومهندس يسهل له الري ، ولم ينتفع بالآلات البخارية في

الزراعة والصناعة إلا بعد ان أجهد المخترعون « كيمس وات » وغيره قرائهم حتى وصلوا الى استخدام البخار. فالاعمال العقلية ضرورية للاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة ، وهي مقدمة عليها حتى في أحقر الصنائع .

﴿ ج - الاعمال المنتجة للثروة ﴾

اختلفت الآراء من عصر الى آخر في تحديد الاعمال البشرية التي تكون نتيجتها زيادة ثروة الامم ، أما العرب فكانوا يرون - كما يؤخذ من كلام الحريري وغيره من الحكماء - ان المعاش امانة وتجارة وفلاحة وصناعة ، وقد قال الخليفة المأمون « الناس أربعة : ذو سيادة أو صناعة ، أو تجارة أو زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم » ويفهم من ذلك ان تلك الاعمال الاربعة هي التي كانت معتبرة محدثة للثروة ، بمعنى ان عمل الحاكم الذي يقي البلاد شر العدو ، ويرد المظالم ، وينظم الري ، هو عمل يزيد في الثروة ، وكذلك عمل الصانع الذي يوجد منافع للمواد الاولية ، والتاجر الذي يتوسط في جلب تلك المصنوعات وتسليمها طالبيها ، والراعي الذي يقوم باثارة الارض وبذر الحب فيها حتى تنبت ما يسد الحاجة ، وأما اعمال غيرهم فلم تكن محدثة للثروة ، وأما الطبيعيون وهم (كسائي) ومن كان على مذهبه فقد تقدم انهم كانوا يعتبرون ان المحدث للثروة من الاعمال ما كانت متعلقة بالارض من إثارتها وحرثها وبذر الحبوب فيها ، وبناء على ذلك قسموا الناس الى ثلاث طبقات : طبقة ملاك الاراضي وهم المحدثون للثروة حقيقة ، وطبقة الفلاحين وهم الذين يساعدون على هذا الاحداث ، وغيرهم من السكان كذوي الامارة وذوي التجارة وذوي الصناعة ، وكانوا يرون هؤلاء عيالا على الطبقتين الاوليين . ولكن « آدم سميث » لم ينح نحو أولئك الاقتصاديين ، فقد اعتبر الصناعة والتجارة والإمارة من الاعمال المنتجة للثروة ، وتبعه من أتى بعده من الاقتصاديين .

ويمكننا أن نقسم الاعمال (أولا) الى ما هي مباشرة لإعداد سلعة من السلع للقيام بسد حاجة من حاجات الانسان ، وهذه محدثة للثروة بلا خلاف ، مثال ذلك العمل الذي يتكبد كل من حارث الارض و باذر القمح وحاصده ودارسه وطلحنه

وعاجنه وخايزه ، لان كلامها موجه إلى إعداد الخبز مباشرة ، وان تنوعت حالات القمح المراد جعله خبزا (ثانيا) الى غير مباشرة لإعداد الصنف ، وهذه إما يدوية أو عقلية ، أما الاولى فلا يخلو حالها من أحد أمور خمسة (ا) الاعمال التي يتكدها الناس في استخراج المواد الاولية اللازمة للصناعة كاحتفار المناجم وتشذيب الاشجار وغير ذلك ، وهذه بالطبع منتجة مادامت نتيجتها تستخدم في الصناعة (ب) الاعمال التي تصرف في إعداد الآلات اللازمة لصناعة الصنف ، مثال ذلك شغل الحداد في تجهيز المحراث أو آلة الغزل (ج) الاعمال التي يكون من شأنها بناء المحلات المعدة للصناعة كالمعامل والاحواض ، وهكذا لانه لولا تلك المحال لما توفر إعداد البضائع القطنية مثلا أو المراكب (د) ما يوجه من الاعمال الى الحصول على طعام وكساء ولوازم للصناع مادامت تلك الحاجات غير خارجة عن حد الكفاية ، أو للحصول على الفحم اللازم لتسيير الآلات البخارية في حالة ما اذا كان الصانع لا يشتغل بيده (هـ) الاعمال التي بواسطتها يمكن نقل الصنف الى حيث يطلبه الناس ، يدخل فيها عمل الحمالين في السبر وصناعة المراكب والآلات البخارية وبناء الاحواض والارصفة وأعمال أمناء النقل والمراكبية وجميع التجار والتسبين والسياسة والاعمال التي تحسنت بواسطتها الطرقات وغير ذلك . أما العقلية فمنها ما هو متعلق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة ، كالاختراع والتأليف وتعليم الصناعات والتقنين في ابتداعها وترويجها ، ولاشك في ان هذه منتجة ، ولا فرق بين أن تكون هذه موجهة الى الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، ويدخل تحت هذه أعمال الري على اختلاف أنواعها ، وجميع ما تعمله الحكومة أو الاهالي لترقية الصناعة أو التجارة أو الزراعة ، ولا جناح علينا اذا نحن عددنا ضمن تلك الاعمال ما يبذله الفلاسفة والحكماء من الافكار لتعزيد الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تبذله الحكومة من بث العدل في الربوع ، والمحافظة على الامن ، سواء بسن القوانين أو الاعمال الحربية برية كانت أو بحرية

(المراجع) : ان بعض ما أورده المؤلف من الأحاديث لاصحة لاصله أو سنده

وان كان صحيحا في معناه ووضعه